



# المؤتمر العام الخامس عشر لآكارمة آل البيت الملكية

١٨-٢٠ شوال ١٤٣١ هـ الموافق ٢٧-٢٩ أيلول / سبتمبر ٢٠١٠ م

## البيئة في الإسلام

البيئة في القرآن الكريم  
والحديث النبوي الشريف

الدكتور على أوزاك

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين والصَّلَاةُ والسَّلَامُ على سيّدنا محمّد p وعلى آله وصحبه أجمعين.

أولاً: ما هي البيئة في اللغة؟

البيئة: المنزل – الحال, المحيط.

يقال: بيئة طبيعيّة, بيئة اجتماعيّة, بيئة سياسيّة.

ثانياً: البيئة كما في معناها اللغوي هي المنزل والحال والمحيط وهي تتعلّق بالإنسان.

فالإنسان هو نفسه بيئة. ومحيط الإنسان أيضاً بيئة بالنسبة للإنسان كل ما بجوار الإنسان بيئة له من البشر والحيوانات والأشجار والعشب والجبال والهواء والماء والموادّ الغذائيّة والشمس والقمر والنجوم. فكلّ ما يتعلّق بالإنسان أو يتّصل به من الكائنات الحيّة والجامدة بيئة ومحيط وجوار له.

### البيئة في القرآن الكريم:

ما هو القرآن ؟

القرآن كلام الله تعالى أنزل على سيّدنا محمّد p وحيّاً بواسطة جبريل عليه السَّلَام لإرشاد النّاس إلى طريق الهداية وإذا أردنا أن نعرّف القرآن بتعريف جامع لأفراده ومانع لأغياره هو "كتاب هداية وإعجاز". وهذا التعريف باعتبار الغاية لأنّ الهدف الأوّل للقرآن هو هداية النّاس. وهناك تعاريف أخرى.

أما باعتبار المحتوى أو باعتبار الموضوع لذلك هناك تعاريف كثيرة عند الفقهاء والكلاميين وغيرهم.

القرآن كلام الله والذي يتكلّم في القرآن هو الله تعالى.

ومخاطب القرآن هو الإنسان. فالله متكلم والإنسان مخاطب.  
معتمداً على ذلك السبب يتكلم القرآن عن كل ما يتعلق بالإنسان سواء كان  
من حياته الدنيوية أو الأخروية، ولذلك الإسلام دين مركزه الإنسان لكي نفهم  
القرآن فهماً صحيحاً ينبغي علينا أولاً وقبل كل شيء أن نعرف الإنسان ما هو؟  
فطبعاً للإنسان جهات كثيرة:

أولاً: للإنسان طرف مادي وهو الجسم والأعضاء.  
ثانياً: وله طرف روحي أو نفسي، وله ميولات وإحساسات مثل الحب  
والبغض والنفرة وله شعور وحسّ وحظّ وميولات نفسانية وميولات علمية.  
فموضوع القرآن هو الإنسان، وإذا قلنا "البيئة في القرآن الكريم والحديث  
النبوي الشريف" معناها الإنسان العاقل المكلف، لأنّ الله تعالى بيّن في القرآن  
كلّ جوانب الإنسان المادية والروحية. نجد في القرآن كلّ شيء من جوانب  
الإنسان كما يلي:

علاقة الإنسان بربه

علاقة الإنسان ببدنه

علاقة الإنسان بجنبه

علاقة الإنسان بمحيطه

علاقة الإنسان بجواره

علاقة الإنسان بغيره

علاقة الإنسان بالحيوانات

علاقة الإنسان بالأشجار والعشب

علاقة الإنسان بالطبيعة عامّة

كلّ هذه العلاقات ذكرت في القرآن.

ويتفق العلماء في الوقت الحاضر على أن مفهوم البيئة يشمل جميع  
الظروف والعوامل الخارجية التي تعيش فيها الكائنات الحيّة وتؤثر في العمليات

التي تقوم بها. فالبيئة بالنسبة للإنسان- "الإطار الذي يعيش فيه والذي يحتوي على التربة والماء والهواء وما يتضمنه كلّ عنصر من هذه العناصر الثلاثة من مكونات جمادية، وكائنات تنبض بالحياة. وما يسود هذا الإطار من مظاهر شتّى من طقس ومناخ ورياح وأمطار وجاذبيّة ومغناطيسيّة.. الخ ومن علاقات متبادلة بين هذه العناصر.

فالحديث عن مفهوم البيئة إذن هو الحديث عن مكوناتها الطبيعيّة وعن الظروف والعوامل التي تعيش فيها الكائنات الحيّة.

### أنواع البيئات:

**البيئة الطبيعيّة:-** وهي عبارة عن المظاهر التي لا دخل للإنسان في وجودها أو استخدامها ومن مظاهرها: الصّحراء، البحار، المناخ، التّضاريس، والماء السّطحي، والجوفي والحياة النباتيّة والحيوانيّة. والبيئة الطبيعيّة ذات تأثير مباشر أو غير مباشر على حياة أيّة جماعة حيّة من نبات أو حيوان أو إنسان.

**البيئة البيولوجيّة:-** وتشمل الإنسان "الفرد" وأسرته ومجتمعه، وكذلك الكائنات الحيّة في المحيط الحيوي وتُعد البيئة البيولوجيّة جزءاً من البيئة الطبيعيّة.

**البيئة المشيدة:-** وتتكوّن من البنية الأساسيّة الماديّة التي شيدها الإنسان ومن النّظم الاجتماعيّة والمؤسّسات التي أقامها، ومن ثمّ يمكن النّظر إلى البيئة المشيدة من الحاجات البشريّة، وتشمل البيئة المشيدة استعمالات الأراضي للزراعة والمناطق السكنيّة والتنقيب فيها عن الثروات الطبيعيّة وكذلك المناطق الصناعيّة والمراكز التجاريّة والمدارس والمعاهد والطرق.

والبيئة بشقيها الطبيعي والمشيّد هي كلّ متكامل يشمل إطارها الكرة الأرضيّة، أو لنقل كوكب الحياة، وما يؤثّر فيها من مكونات الكون الأخرى ومحتويات هذا الإطار ليست جامدة بل إنها دائمة التفاعل مؤثرة ومتأثرة

والإنسان نفسه واحد من مكونات البيئة يتفاعل مع مكوناتها بما في ذلك أقرانه من البشر، وقد ورد هذا الفهم الشامل على لسان السيد يوثانت الأمين العام للأمم المتحدة حيث قال: "إننا شئنا أم أبينا نسافر سوية على ظهر كوكب مشترك.. وليس لنا بديل معقول سوى أن نعمل جميعاً لنجعل منه بيئة نستطيع نحن وأطفالنا أن نعيش فيها حياة كاملة آمنة". وهذا يتطلب من الإنسان وهو العاقل الوحيد بين صور الحياة أن يتعامل مع البيئة بالرّفق والحنان، يستثمرها دون إتلاف أو تدمير... ولعلّ فهم الطبيعة ومكونات البيئة والعلاقات المتبادلة فيما بينها يمكن الإنسان أن يوجد ويطوّر موقعاً أفضل لحياته وحياة أجياله من بعده. يمكن تقسيم البيئة، وفق توصيات مؤتمر ستوكهولم، إلى ثلاثة عناصر هي:

**البيئة الطبيعيّة:-** وتتكوّن من أربعة نظم مترابطة وثيقاً هي: الغلاف الجوّي، الغلاف المائي، اليابسة، المحيط الجوي، بما تشمله هذه الأنظمة من ماء وهواء وتربة ومعادن، ومصادر للطّاقة بالإضافة إلى النباتات والحيوانات، وهذه جميعها تمثّل الموارد التي أتاحتها الله سبحانه وتعالى للإنسان كي يحصل منها على مقومات حياته من غذاء وكساء ودواء ومأوى.

**البيئة البيولوجيّة:-** وتشمل الإنسان "الفرد" وأسرته ومجتمعه، وكذلك الكائنات الحيّة في المحيط الحيوي وتعدّ البيئة البيولوجيّة جزءاً من البيئة الطبيعيّة.

**البيئة الاجتماعيّة:-** ويقصد بالبيئة الاجتماعيّة ذلك الإطار من العلاقات الذي يحدّد ماهيّة علاقة حياة الإنسان مع غيره، ذلك الإطار من العلاقات الذي هو الأساس في تنظيم أيّ جماعة من الجماعات سواء بين أفرادها بعضهم ببعض في بيئة ما، أو بين جماعات متباينة أو متشابهة معاً وحضارة في بيئات متباعدة، وتؤلّف أنماط تلك العلاقات ما يعرف بالنّظم

الاجتماعية، واستحدث الإنسان خلال رحلة حياته الطويلة بيئة حضارية لكي تساعد في حياته فعمّر الأرض واخترق الأجواء لغزو الفضاء.

وعناصر البيئة الحضارية للإنسان تتحدّد في جانبين رئيسيين هما:

**أولاً: الجانب المادي:-** كلّ ما استطاع الإنسان أن يصنعه كالمسكن

والملبس ووسائل النقل والأدوات والأجهزة التي يستخدمها في حياته اليومية.

**ثانياً: الجانب غير المادي:-** فيشمل عقائد الإنسان و عاداته وتقاليده

وأفكاره وثقافته وكلّ ما تنطوي عليه نفس الإنسان من قيم وآداب وعلوم تلقائية كانت أم مكتسبة.

وإذا كانت البيئة هي الإطار الذي يعيش فيه الإنسان ويحصل منه على

مقومات حياته من غذاء وكساء ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني البشر،

فإن أول ما يجب على الإنسان تحقيقه حفاظاً على هذه الحياة أن يفهم البيئة فهماً

صحيحاً بكلّ عناصرها ومقوماتها وتفاعلاتها المتبادلة، ثم أن يقوم بعمل جماعي

جاداً لحمايتها وتحسينها وأن يسعى للحصول على رزقه وأن يمارس علاقاته

دون إتلاف أو إفساد.

### **البيئة والنظام البيئي:**

يطلق العلماء لفظ البيئة على مجموعة الظروف والعوامل الخارجية التي

تعيش فيها الكائنات الحية وتؤثر في العمليات الحيوية التي تقوم بها، ويقصد

بالنظام البيئي أية مساحة من الطبيعة وما تحويه من كائنات حية ومواد حية في

تفاعلها مع بعضها بعضاً ومع الظروف البيئية وما تولده من تبادل بين الأجزاء

الحية وغير الحية، ومن أمثلة النظم البيئية الغابة والنهر والبحيرة والبحر،

وواضح من هذا التعريف أنه يأخذ في الاعتبار كلّ الكائنات الحية التي يتكوّن

منها المجتمع البيئي ( البدائيات، والطلائعيات والتوالي النباتية والحيوانية)

وكذلك كلّ عناصر البيئة غير الحية (تركيب التربة، الرياح، طول النهار،

الرطوبة، التلوّث... الخ) ويأخذ الإنسان - كأحد كائنات النظام البيئي - مكانة خاصة نظراً لتطوّره الفكري والنّفسي، فهو المسيطر - إلى حدّ ملموس - على النّظام البيئي وعلى حسن تصرّفه تتوقّف المحافظة على النظام البيئي وعدم استنزافه.

هناك **كائنات حيّة ذاتيّة التّغذية**: وهي الكائنات الحيّة التي تستطيع بناء غذائها بنفسها من مواد غير عضويّة بسيطة بوساطة عمليّات البناء الضوئي، (النباتات الخضراء)، وتعتبر هذه الكائنات المصدر الأساسي والرئيسي لجميع أنواع الكائنات الحيّة الأخرى بمختلف أنواعها كما تقوم هذه الكائنات باستهلاك كمّيّات كبيرة من ثاني أكسيد الكربون خلال عمليّة التركيب الضوئي وتقوم بإخراج الأكسجين في الهواء

**كائنات حيّة غير ذاتيّة التّغذية**: وهي الكائنات الحيّة التي لا تستطيع تكوين غذائها بنفسها وتضمّ الكائنات المستهلكة والكائنات المحلّلة، فأكلات الحشائش مثل الحشرات التي تتغذى على الأعشاب كائنات مستهلكة تعتمد على ما صنعه النّبات وتحولّه في أجسامها إلى مواد مختلفة تبني بها أنسجتها وأجسامها، وتسمّى مثل هذه الكائنات المستهلك الأول لأنها تعتمد مباشرة على النّبات، والحيوانات التي تتغذى على هذه الحشرات كائنات مستهلكة أيضاً ولكنها تسمّى "المستهلك الثاني" لأنها تعتمد على المواد الغذائيّة المكوّنة لأجسام الحشرات والتي نشأت بدورها من أصل نباتي، أمّا الكائنات المحلّلة فهي تعتمد في التّغذية غير الذاتيّة على تفكّك بقايا الكائنات النباتيّة والحيوانيّة وتحولّها إلى مركّبات بسيطة تستفيد منها.

### الإنسان ودوره في البيئة:

يعتبر الإنسان أهم عامل حيوي في إحداث التغير البيئي والإخلال الطبيعي البيولوجي، فمنذ وجوده وهو يتعامل مع مكونات البيئة، وكلما توالى الأعوام ازداد تحكّماً وسلطاناً في البيئة، وخاصة بعد أن يسّر له التقدم العلمي

والتكنولوجي مزيداً من فرص إحداث التغيير في البيئة وفقاً لازدياد حاجته إلى الغذاء والكساء.

وهكذا قطع الإنسان أشجار الغابات وحول أرضها إلى مزارع ومصانع ومساكن، وأفرط في استهلاك المراعي بالرعي المكثف، ولجأ إلى استخدام الأسمدة الكيماوية والمبيدات بمختلف أنواعها، وهذه كلها عوامل فعّالة في الإخلال بتوازن النظم البيئية، ينعكس أثرها في نهاية المطاف على حياة الإنسان كما يتضح ممّا يلي:

- **الغابات:** الغابة نظام بيئيّ شديد الصّلة بالإنسان، وتشمل الغابات ما يقرب 28% من القارّات ولذلك فإن تدهورها أو إزالتها يحدث انعكاسات خطيرة في النّظام البيئيّ وخصوصاً في التوازن المطلوب بين نسبتي الأوكسجين وثاني أكسيد الكربون في الهوا.

- **المراعي:** يؤدّي الاستخدام السيئ للمراعي إلى تدهور النّبات الطّبيعي، الذي يرافقه تدهور في التربة والمناخ، فإذا تتابع التدهور تعرّت التربة وأصبحت عرضة للانجراف.

- **النظم الزراعية والزراعة غير المتوازنة:** قام الإنسان بتحويل الغابات الطّبيعية إلى أراض زراعية فاستعاض عن النّظم البيئية الطّبيعية بأجهزة اصطناعية، واستعاض عن السّلاسل الغذائيّة وعن العلاقات المتبادلة بين الكائنات والمواد المميّزة للنّظم البيئية بنمط آخر من العلاقات بين المحصول المزروع والبيئة المحيطة به، فاستخدم الأسمدة والمبيدات الحشريّة للوصول إلى هذا الهدف، وأكبر خطأ ارتكبه الإنسان في تفهمه لاستثمار الأرض زراعياً هو اعتقاده بأنّه يستطيع استبدال العلاقات الطّبيعية المعقدة الموجودة بين العوامل البيئية - النّباتات - بعوامل اصطناعية مبسّطة، فعارض بذلك القوانين المنظّمة للطّبيعة، وهذا ما جعل النّظم الزراعية مرهقة وسريعة العطب.



- النباتات والحيوانات البرية: أدى تدهور الغطاء النباتي والصيد غير المنتظم إلى تعرّض عدد كبير من النباتات والحيوانات البرية إلى الانقراض، فأخلّ بالتوازن البيئيّ.

### أثر التصنيع والتكنولوجيا الحديثة على البيئة:

إن للتصنيع والتكنولوجيا الحديثة آثاراً سيئة في البيئة، فانطلاق الأبخرة والغازات وإلقاء النفايات أدى إلى اضطراب السلاسل الغذائية، وانعكس ذلك على الإنسان الذي أفسدت الصناعة بيئته وجعلتها في بعض الأحيان غير ملائمة لحياته كما يتضح ممّا يلي:

- **تلويث المحيط المائي:** إن للنظم البيئية المائية علاقات مباشرة وغير مباشرة بحياة الإنسان، فمياهها التي تتبخّر تسقط في شكل أمطار ضرورية للحياة على اليابسة، ومدّخراتها من المادة الحية النباتية والحيوانية تعتبر مدّخرات غذائية للإنسانية جمعاء في المستقبل، كما أنّ ثرواتها المعدنية ذات أهمية بالغة.

- **تلوث الجو:** تتعدّد مصادر تلوث الجو، ويمكن القول إنّها تشمل المصانع ووسائل النقل والانفجارات الذرية والفضلات المشعّة، كما تتعدّد هذه المصادر وتزداد أعدادها يوماً بعد يوم، ومن أمثلتها الكلور، وأوّل أكسيد الكربون، ثاني أكسيد الكبريت، أكسيد النيتروجين، أملاح الحديد والزنك والرصاص وبعض المركبات العضوية والعناصر المشعّة. وإذا زادت نسبة هذه الملوثات عن حدّ معين في الجو أصبح لها تأثيرات واضحة على الإنسان وعلى كائنات البيئة.

- **تلوث التربة:** تتلوّث التربة نتيجة استعمال المبيدات المتنوعة والأسمدة وإلقاء الفضلات الصناعية، وينعكس ذلك على الكائنات الحية في التربة، وبالتالي على خصوبتها وعلى النبات والحيوان، ممّا ينعكس أثره على الإنسان في نهاية المطاف

## البيئة في القرآن:

هنا نأخذ من القرآن سورة النحل مثالا لجعل الإنسان مخاطباً ولتبيين ذات الإنسان وبيئته. قال الله تعالى في سورة النحل: [ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ] [النحل: 1].

سبب نزول هذه الآية كما نقله الزمخشري في الكشاف هكذا :

روى أنه لما نزلت [ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ ] [ القمر: 1] ، "قال الكفار فيما بينهم إن هذا ( سيّدنا محمد p ) يزعم أن القيامة قد قربت ، فامسكوا بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن. فلما تأخرت قالوا: ما نرى شيئاً فنزلت [ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ] [ الأنبياء: 1] ، فأشفقوا وانتظروا قربها.

فلما امتدت الأيام قالوا : يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به فنزلت [ أَمْرُ اللَّهِ ] [النحل: 1] ، فبعد ذلك اطمأنوا. فمعنى الآية : لا تستعجلوا فإنها آتية قطعاً واستعمال صيغة الماضي كأنها أنت الآن.

وفي الآية الثانية أفاد بأنه سبحانه وتعالى ينزل الملائكة بالروح من أمر ربه يعني يرسل الملائكة بالوحي إلى رسله [ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ] [النحل: 2].

ثم يبين سبب لزوم العبادة له ، لأنه خلق السماوات و الأرض بالحق. فالسماوات و الأرض من بيئة الإنسان.

ثم يوضح بعد ذلك الإنسان المخاطب في القرآن و يقول: [ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ] [النحل: 4].

يشرح لنا بأن الإنسان خلق من نطفة ثم بعد أن أصبح إنساناً متكاملًا يخالف ربه و يشتدّ في مخالفته. هذا هو الإنسان الذي صورّ الله خلقه.

إنّ الإنسان في الكون عنصر أصلي. كلّ شيء يدور حول الإنسان فالإنسان مركز كلّ ما في الكون.

فالله سبحانه وتعالى يذكر كلّ ما كان له علاقة بالإنسان و يبدأ من الحيوانات القريبة له خاصّة في إدامة حياته الغذائيّة:

[ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ  
حِينَ تَرْتَمِحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَوْثِقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۗ  
إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ]  
[النحل: 5- 8].

كل ما ذكر في هذه الآيات هي البيئة الحقيقية بالنسبة للإنسان. إن الخيل  
والبغال والحمير والإبل كانت وسائل النقل والتنقل في الزمن القديم وكان يُعتمد  
على هذه الحيوانات. وفي آخر الآية قال الله تعالى: [وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ].  
حين نزول هذه الآية ما كان أحد يعرف ماذا سيوجد في المستقبل من  
وسائل النقل والتنقل والقرآن شجّع الناس على إيجاد وسائل النقل الجديدة وقال  
الله مخاطبًا الإنسان: بأنه يخلق من وسائل النقل ما لا تعلمون الآن لأنكم بعقلكم  
الذي أعطاكموه الله مقتدرون لإيجاد الوسائل الكثيرة بما وهبه الله لكم من العقل  
والقدرة.

### وسائل النقل تنقسم إلى قسمين:

الأول: وسائل نقل المواد اللازمة للإنسان ووسائل نقل الإنسان.

الثاني: وسائل نقل الأخبار والعلوم والتكنولوجيا.

إن القطار والسيارات والطائرات والسفن البحرية والفضائية فكل هذه هي  
الوسائل النقلية الجديدة التي منحها الله تعالى للإنسان.  
ثم يتطرق القرآن إلى شيء مهم جدًا و هو بيئة الإنسان المعنوية وهي  
بالنسبة للإنسان الهداية والضلالة ويقول:

[ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِرٌ وَلَوْ شَاءَ هَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ ] [النحل: 9].

أمام الإنسان طريقان: طريق الخير وطريق الشر أو بعبارة أخرى طريق  
الهداية وطريق الضلالة كل إنسان يستطيع أن يفعل الخير و الشر بالقوة كما  
جاء في سورة الشمس:

[ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ] [ الشمس: 7-10 ].

و في آخر الآية قال : [ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَنكُمْ أَجْمَعِينَ ] [ النحل: 9 ]، ولو شاء لهداكم أجمعين. و هذا يدلّ على أنّ الله جعل الإنسان قادراً على فعل الخير والشرّ للامتحان.

ثم ينتقل إلى البيئية الملازمة للإنسان ويقول:

[ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴿١١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴿١٣﴾ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴿١٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ﴿١٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ فِي الْأَرْضِ رَؤُوسٍ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ وَسُبُلًا لِّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٩﴾ وَعَلَّمَسِرَّ وَالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢٠﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ ﴿٢١﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن تَعُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴿٢٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ] [ النحل: 10-18 ].

### البيئية في السُّنة:

إنّ رسول الله ﷺ أعطى أهمية للبيئة وفي إمكاننا القول إن سيّدنا محمّد ﷺ رائد الحفاظ على البيئة وإذا نظرنا إلى كتاب الطهارة في كتب الفقه لرأينا أنّ الإسلام اهتم بالنظافة والطهارة وحفظ البيئة والجوار . فقد أوصى الرسول ﷺ أصحابه أن يهتموا بالبيئة سواء كانت البيئة الماديّة مثل جسم الإنسان وما يتعلّق به من الماء والهواء والنّبات والحيوانات والأشجار أو البيئة المعنويّة مثل النظافة الروحيّة و المعنويّة والأخلاقيّة.

أما الأحاديث النبويّة فهي كثيرة جداً:

جاء في الحديث النبويّ: "ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة"

الواقع أن القول بأن سيّدنا محمّد  $\mu$  رائد من رواد الحفاظ على البيئة سوف يقع في آذان الكثيرين في البداية موقعاً غريباً، إذ لا شك أن مصطلح "الحفاظ على البيئة" وما يرتبط به من مفاهيم مثل "البيئة" و"الوعي البيئي" و"ترشيد الاستهلاك" هي ألفاظ من اختراع العصر الحديث، أي مصطلحات صيغت لتواجه الاهتمامات المتزايدة بالوضع الراهن لعالم الطبيعة من حولنا.

ومع ذلك فإنّ قراءة الأحاديث النبويّة عن قرب، أي تلك الروايات المتعلقة بالأحداث الهامّة في حياة سيّدنا محمّد  $\mu$ ، لثرينا أنه كان واحداً من أشدّ المنادين بحماية البيئة. بل إنّ بمستطاعنا القول: إنّه كان في نصرتة للبيئة سابقاً لعصره، أي رائداً في مجال المحافظة على البيئة والتطوّر الرّشيد والإدارة الحكيمة للموارد الطبيعيّة، وواحداً من الذين يسعون لإقامة توازن متناسق بين الإنسان والطبيعة. وبالاستناد إلى ما أوردته لنا الأحاديث من أعماله وأقواله يمكننا القول بأنّ سيّدنا محمّد  $\mu$  كان يتمتّع باحترام عميق لعالم النباتات والأزهار وأنه كان على صلة حميمة بعناصر الطبيعة الأربعة: التراب والماء والنّار والهواء.

لقد كان سيّدنا محمّد  $\mu$  من الدّعاة الأقوياء للاستخدام الرّشيد للأرض والماء واستثمارهما، وكذلك المعاملة الكريمة للحيوانات والنباتات والطيور، والحقوق المتساوية لمن يتعاملون معها من البشر. وفي هذا السّياق فإنّ حداثة رؤيته للبيئة وحداثة المفاهيم التي جاء بها في هذا المجال لمما يشدّه العقل شدّها، حتى لتبدو بعض أحاديثه وكأنّها مناقشات عصريّة حول قضايا البيئة.

### المبادئ الثلاثة:

إنّ فلسفة سيّدنا محمّد  $\mu$  البيئيّة هي أوّلاً وقبل كل شيء فلسفة شاملة مترابطة، إذ تقوم على أن هناك صلة أساسية وارتباطاً متبادلاً بين عناصر

الطبيعة، كما أن نقطة انطلاقها هي الإيمان بأنه إذا أساء الإنسان استخدام عنصر من عناصر الطبيعة أو استنزفه استنزافاً فإنّ العالم الطبيعي برُمته سوف يضارّ أضراراً مباشرة. على أنّ هذا الاعتقاد لا يُنصّ عليه في حديث واحد نصاً مباشراً، بل يمثل بالأحرى المبدأ الذي تنهض عليه جميع أقوال سيّدنا محمّد p وأفعاله. إنه فلسفة حياته التي على ضوئها نستطيع أن نبصر ملامح شخصيّته.

إنّ أهم ثلاثة مبادئ في الفلسفة المحمديّة المتعلقة بالطبيعة تقوم على تعاليم القرآن ومفاهيم الوحدانيّة وخلافة البشر والثقة في الإنسان. ويمثل التوحيد حجر الزاوية في دعوة الإسلام، وهذا التوحيد يراعي الحقيقة التي تقول بوجود خالق واحد للكون وأنّ الإنسان مسؤول أمامه عن أعماله: [ **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ<sup>٤</sup> وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ] [المائدة: 120].

ويقرّ سيّدنا محمّد p بأنّ علم الله وقدرته يشملان كلّ شيء، ومن ثمّ كانت الإساءة إلى أيّ مخلوق من مخلوقاته، سواء كان كائناً حياً أو مصدرّاً من مصادر الطبيعة، ذنباً من الذنوب يجازى الإنسان عليه. وفي اعتقاده أنّ جميع مخلوقات الله متساوية أمامه سبحانه، وأنّ الحيوانات، وكذلك الأرض والغابات وينابيع المياه، ينبغي أن يكون لها حقوق تُحترم.

أمّا مفهوم الخلافة البشريّة في الأرض والثقة في الإنسان فينبعان من مبدأ الوحدانيّة. ويوضّح القرآن أنّ الإنسان يتمتع بوضع متميّز بين مخلوقات الله على الأرض، إذ اصطفاه ليكون خليفة فيها وينهض بمسؤوليّة العناية بغيره من مخلوقات هذا الكوكب. وهذا واجب كلّ فرد فينا ووظيفة تميّزه من سائر المخلوقات. ورغم هذا نرى القرآن مراراً وتكراراً ينهى الإنسان عن الكبر منبّهاً إيّاه إلى أنّه ليس أفضل من سائر المخلوقات: [ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ<sup>٥</sup> مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ<sup>٦</sup> ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ** ] [الأنعام: 38].

وكان سيّدنا محمّد  $\mu$  يؤمن بأنّ الكون بما فيه من مخلوقات، فهي حيوانات كانت هذه المخلوقات أو نباتاتٍ أو مياهًا أو أرضين، لم تُخلق لتكون للبشر. صحيح أنّ لهم الحقّ في استخدام موارد الطبيعة، إلّا أنّهم لا يمكنهم أن يملكوها تملكاً. ومن هنا ففي الوقت الذي يسمح الإسلام للإنسان بحيازة الأرض نراه يضع حدوداً لذلك. فعلى سبيل المثال يمكنه أن يحوز الأرض فقط طالما كان يستعملها، لكنّه ما إن يكفّ عن هذا الاستعمال حتى يصبح واجباً عليه التخلّي عن هذه الحيازة.

ويعترف سيّدنا محمّد  $\mu$  بمسؤوليّة الإنسان أمام ربّه، بيد أنّه كان دائماً وأبداً يدعو إلى التواضع، ومن ثمّ نراه يقول: "إن قامت على أحدكم القيامة وفي يده فسيلة فليغرسها"، فهو هنا يبيّن أنّه، حتى عند انتفاء كلّ أمل للبشر، على الفرد أن يحافظ على نموّ الطبيعة. لقد كان مؤمناً بأنّ الطبيعة حسنة في ذاتها حتّى لو لم يستفد البشر منها. وبالمثل نراه يحضّ أتباعه على التّشارك في موارد الطبيعة، إذ يخاطبهم قائلاً: "المسلمون شركاء في ثلاث: الماء والكلاء والنّار". كما يعدّ حرمان العطشان من الماء إثماً يعاقب عليه: "من منع فضل مائه أو فضل كلاءه منعه الله فضله يوم القيامة".

والواقع أن موقف سيّدنا محمّد  $\mu$  تجاه الاستعمال الرّشيد للأرض والمحافظة على الماء والطريقة التي كان يعامل بها الحيوانات هو دليل آخر على التّواضع الذي يصبغ فلسفته حول البيئة.

### الاستخدام الرّشيد للأرض:

"جُعِلت لي الأرض مسجداً وطهوراً". في هذا الحديث يؤكّد سيّدنا محمّد  $\mu$  الطّبيعة المقدّسة للأرض أو التّربة، لا بوصفها ذاتاً طاهرة فحسب، بل بوصفها مادة مطهّرة كذلك. ويظهر أيضاً هذا الاحترام للأرض في شعيرة التّيمم

التي تجيز للمسلم استعمال التراب في الطهارة الواجبة عند الصلّاة في حالة فقدان الماء.

وينظر سيّدنا محمّد  $\mu$  إلى الأرض على أنّها مسخّرة للإنسان، لكن لا ينبغي له مع ذلك أن يفرط في استخدامها أو يسيء استعمالها، كما أن لها ذات الحقوق التي للأشجار والحيوانات البرية التي تعيش فوقها. ومن أجل المحافظة على الأرض والغابات والحيوانات البرية جعل سيّدنا محمّد  $\mu$  عددًا من المحميّات، أي الأماكن التي يحرم فيها استعمال الموارد الطبيعيّة، وهو ما لا يزال معروفًا إلى اليوم، إذ هناك مناطق ممنوعة حول بعض الآبار وعيون الماء غايتها حماية المياه الجوفيّة من الاستهلاك المفرط والتفاد. ومنها المناطق الخاصّة بالحيوانات البرية والغابات حيث يُمنع الرعي وقطع الأشجار أو يحرم التعرّض لأنواع معيّنّة من الحيوانات.

ولم يشجّع سيّدنا محمّد  $\mu$  فقط الاستعمال الرّشيد للأرض، بل لفت أنظار أتباعه أيضًا إلى المكاسب التي يجنيها الإنسان من إحياء الأرض البور، إذ جعل زرع شجرة أو غرس بذرة أو سقي أرض عطشى من أعمال البرّ والإحسان: "من أحيا أرضاً ميتة فله فيها أجر". وعلى هذا فأيّما شخص ساق الماء إلى قطعة أرض قاحلة فهي له.

### المحافظة على الماء :

في البيئة الصحراويّة الخشنة التي كان يعيش فيها سيّدنا محمّد  $\mu$  يُعدّ الماء مرادفًا للحياة، فهو نعمة من الله، بل هو أصل الحياة كما يشهد بذلك القرآن: [ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ] [ الأنبياء: 30 ]. ويذكر القرآن المسلم على الدوام بأنه خليفة الله في الأرض، لكن لا ينبغي له مع ذلك أن يأخذ الأشياء المخلوقة على أنها أمرٌ مسلمٌ به: [ أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْتَهُ أَجَا جًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ] [ الواقعة: 68- 70 ].



كذلك كان الاقتصاد في الماء والمحافظة على طهارته قضيتين مهمتين عند سيدنا محمد ﷺ. ولقد رأينا كيف أدّى اهتمامه بالاستخدام الرشيد للماء إلى إقامة المحميات بالقرب من ينابيعه. وحتى عندما يكون الماء متوفراً نراه ينصح بالاعتدال في استعماله. ومن ذلك نهيه عن غسل أعضاء الوضوء أكثر من ثلاث مرّات حتى لو كان المتوضّئ على نهر جارٍ. ويضيف البخاري قائلاً: "وكره أهل العلم الإسراف فيه وأن يجاوزوا فعل النبي ﷺ". وبالمثل نهى سيدنا محمد ﷺ عن تلويث المياه، وذلك بمنع التبول في الماء الرّاكد.

### معاملة الحيوانات:

يقول سيدنا محمد ﷺ: "من قتل عصفوراً فما فوقها بغير حقّها سأل الله عزّ وجلّ عنها يوم القيامة".

وهو حديث يعكس إجلال سيدنا محمد ﷺ واحترامه وحبّه للحيوانات. ذلك أنّه كان يعتقد أنّها بوصفها خلقاً من خلق الله ينبغي أن تحظى بمعاملة كريمة، ففي الأحاديث النبويّة عدد ضخم من الروايات والتوجيهات الخلقية والقصص التي ترسم لنا صورة عن علاقته بالحيوانات. وبعض هذه القصص ترينا أنه كان يهتم اهتماماً خاصاً بالإبل والخيول: فهما في رأيه نعم الرفيق في الأسفار والحروب، كما كان يجد كثيراً من الراحة والحكمة في صحبتها حسبما يقول لنا الحديث الثّالي: "الخيول معقودٌ بنواصيها الخير إلى يوم القيامة".

وحثّى في ذبح الحيوان نجده يُبدي قدراً عظيماً من الرّقّة والرحمة. وعلى الرّغم من أنه لم يكن نباتياً فإنّ الأحاديث تبين لنا بوضوح أنّه كان حسّاساً للغاية تجاه معاناة الحيوانات حتّى لكأنّه كان يشاركها ألمها مشاركة وجدانية. ومن هنا نجده يأمر باستعمال سكين حادّ في الذّبح واتباع طريقة مسؤولة من شأنها أن تزهِق روح الحيوان سريعاً بحيث يَخفّ ألم الدّبيحة إلى أقصى درجة ممكنة. كما نهى عن ذبح أيّ حيوان أمام غيره من الحيوانات أو إحداث الشفرة بحضرتة، وإلّا

فكأنه قد ذبحه مرتين حسبما جاء في حديثه لمن كان يُحدّ شفرته في حضور ذبيحته، إذ قال له مستكراً: " أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا أهددت شفرتك قبل أن تضجعا؟". لقد كان يكره ذلك كراهية شديدة.

نقول إنّه من المستحيل إيفاء المدى الذي بلغته فلسفة سيّدنا محمد ص البيئية، وكذلك الأهميّة التي تستأهلها حقهما في هذه المقالة القصيرة، فرويته الشاملة للطبيعة وفهمه لمكان الإنسان داخل العالم الطبيعي هما رؤية وفهم رائدان في مجال الوعي البيئي لدى المسلمين.